من البادية إلى المدينة: عوامل التحول ورهان التنمية
(حالة مدينة طرفاية)

From Badia to Medina: Factors of transformation and développement
(Status of the city of Tarfaya)

د. امبارك ايت خليفة
جامعة محمد الخامس؛ المغرب
Khalifa200agadir@gmail.com
د. محمد بوست
جامعة محمد الخامس؛ المغرب
Mohamed.bousta@outlook.com

تاريخ الاستقبال: 2019 /08/23 تاريخ القبول: 15 / 09 / 2019 تاريخ النشر: 30 / 09 / 2019

ملخص:

تهتم هذه الورقة العلمية، بدراسة ظاهرة مهمة عرفها المجال الصحراوي المغربي، ويتعلق الأمر بظاهرة التمدن والاستقرار، وذلك من خلال محاولة الإحاطة ببوادر التمدن بمدينة لها جدور تاريخية بمجال كان يسود فيه الترحال كنمط العيش، ويتعلق الأمر هنا بمدينة طرفاية، حيث سنحاول أن نقف في ذلك على المراحل التاريخية التي حددت مسار تشكل هذه المدينة في الصحراء. إلى جانب الوقوف على بعض الإشكالات والعوائق التي تحول دون تحقيق تنمية مستدامة بالمدينة المذكورة خاصة وباقي مدن الصحراء عامة، لنرصد قبل ذلك بعض رهانات ومؤهلات التنمية بمجال الدراسة والتي تبرز في عدة مستويات سنعمل على تبيانها في هذا المقال.

- ***الكلمات المفتاحية:*** *البداوة، المدينة، التحضر، التنمية، طرفاية.*

Abstract:

This paper focuses on the study of an important phenomenon known as the Sahrawi desert area, and it is related to the phenomenon of urbanization and stability, by trying to get acquainted with the signs of urbanization in a city that has a historical significance in a field where there was widespread travel as a way of life. It is here in the city of Tarfaya, where we will try to stand On the historical stages that set the course of the formation of this city in the desert. As well as to identify some of the problems and obstacles that prevent the achievement of sustainable development in the city in particular and the rest of the desert cities in general, to monitor before that some of the bets and qualifications of development in the field of study, which stands out at several levels will be described in this article.

- **Keywords:** Badawah,City,Urbanization, Development, Tarfaya.

- **تقديم:**

إن دراسة مجال جغرافي بعينه، ليس بالعملية اليسيرة أو السهلة. ويزداد الأمر تعقيدا عندما نحاول قراءة التاريخ واستنطاق أحداثه ومؤشراته؛ لأن فهم الحاضر واستشراف المستقبل، يستوجب استحضار التاريخ ووقائعه. وهذه العملية تبدو جد معقدة وخاصة عندما نتحدث عن مدينة صحراوية لعبت أدوارا تاريخية مهمة، اختلفت باختلاف المراحل التاريخية التي حددت مسار تشكل تلك المدينة. لكن ورغم كل هذه العوائق والإشكالات الإبستيمولوجية والميتودولوجية الكبرى، إلا أننا سنحاول في هذه الورقة العلمية قدر الإمكان استنطاق ومساءلة ظاهرة مهمة عرفها المجال الصحراوي؛ ويتعلق الأمر بظاهرة التمدن والاستقرار، وذلك من خلال الوقوف على عوامله وأسبابه المباشرة وغير المباشرة من جهة، ثم الوقوف على بعض الإشكالات والعوائق التي تحول دون تحقيق تنمية محلية بمدينة طرفاية من جهة أخرى، لنرصد قبل ذلك بعض رهانات التنمية بمجال الدراسة. لهذا يمكن تحديد إشكالية هذه الدراسة وصياغتها في التساؤلات التالية:

1- كيف ظهر التمدن في الصحراء عامة؟
2- ما هي عوامل التمدن ومراحله بمدينة طرفاية؟
3- ما هو واقع التنمية بمدينة طرفاية وبعض رهاناته؟

- **أولا: السيرورة التاريخية لتمدن الصحراء**

إن رصد بوادر التمدن بمدينة طرفاية، يستدعي منا استنطاق العديد من المحطات التاريخية التي أثرت في تاريخ الصحراء عامة ومدينة طرفاية على وجه الخصوص. فمجال مدينة طرفاية لا يمكن فهمه إلا داخل سياق التحولات المختلفة التي عرفتها المنطقة الصحراوية عامة، لاعتبار تاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخ الصحراء. وأن سبر أغوار هذا التاريخ ليس بعملية يسيرة بل عملية معقدة ومتشابكة، صعوبتها وتعقدها يكمن أساسا في قلة الكتابات التاريخية حول هذه المنطقة من جهة، ومن جهة ثانية حداثة هذه الظاهرة بالمنطقة أي ظاهرة التمدن. إن هذا

كله لن يمنعنا من محاولة تحديد بعض عوامل التمدن أو الاستقرار بهذه المنطقة الساحلية بالصحراء. لذلك سنحاول قدر الإمكان أن نقف في هذا المحور على بعض تلك العوامل التي حددناها في عوامل غير مباشرة وعوامل مباشرة، أما الأولى فتتمثل أساسا في التجارة الصحراوية التي كانت تجوب المنطقة الصحراوية صوب بلاد السودان جنوبا وأروبا شمالا، ثم توفر المنطقة على أبار غنية. أما الثانية -المباشرة- فتتمثل أساسا في بداية دخول الاستعمار للمنطقة والتحضير لتأسيس مدينة ساحلية بها، ثم بعد ذلك تدخل الدولة المغربية في المنطقة فور استرجاعها من المستعمر الإسباني.

أ. دور التجارة القافلية في تشكل الحواضر بالصحراء

إن تاريخ المنطقة الصحراوية ككل وخاصة منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب هو البداوة والترحال، مما يفسر لنا هيمنة الترحال والتنقل كنشاط يومي للبدو بحثا عن الكلاء للماشية، وبالتالي قلة العمران بهذه المنطقة. وقد وصفها" أحمد الأمين الشنقيطي" صاحب "الوسيط" في قوله؛ بأنها منطقة كانت مقفرة حتى أواخر القرن التاسع عشر(...)حيث لا قرية فيها ولا ساقية ولا سوق تساق إليه السلع(...)، وإنما ينزلها أهل المواشي، فيسيمون أنعامهم بواديها، ثم يرتحلون فلا يبقى فيها أنيس".**(بوزنكاض، محمد، 2012،ص : 126)**

وقد أشار الإسباني (Angel Morales Flores)، أن المنطقة لا يوجد فيها أية مدن ولا قرى كما هو الشأن بالنسبة لشمال المغرب، هذه المنطقة الشاسعة وندرة الماء جعلت من سكانها رحالا ومنازلهم" الخيام"، أو يأخذون فرو الإبل وجلد الماعز الذي يستعمل ويجمع بسرعة عند ترحالهم" .**(محمد، شرايمي، 2015، ص : 09)**

إن هذه الشهادات تبين لنا بشكل جلي وواضح ضعف الإرث الحضري بالمنطقة الصحراوية بأكملها، ويمكن إرجاع ذلك إلى العديد من العوامل؛ منها ما يتعلق بالعائق المناخي، حيث يسود مناخ حار في منطقة جد قاحلة، إضافة إلى هيمنة نمط عيش البداوة، فضلا عن غياب سلطة سياسية مركزية قائمة في تاريخ المنطقة الصحراوية قبل تأسيس الدولة الوطنية.

الأمر كله يجعل من التمدن والعمران شيئا يصعب الحديث عنه في هذه المرحلة، لأن الترحال هنا أخذ طابعا سوسيوثقافيا متجذرا في البنية الاجتماعية والثقافية للبدو. غير أن هذه المنطقة الصحراوية كان لها أثرا واضحا للعيان في بعض مناحي الحياة في المجال بأكمله، ولعل من تلك المناحي ما يتعلق بالتجارة القافلية.

لا أحد من المهتمين بالمجال الصحراوي ينكر دوره في التجارة القافلية، التي كانت تجوب المنطقة صوب السودان الغربي قادمة من شمال إفريقيا. **(حافظ علوي حسن، 2014، ص: 155)**

حيث خلفت لنا مجموعة من المصادر والدراسات العديد من المعطيات الهامة حول ذلك. لكن نحن هنا لسنا بصدد الحديث عنها كلها؛ لأن المقام لا يناسبنا لذلك، ومنه سنعمل فقط على استنطاق بعض المعطيات مما يهمنا منها لنرصد البدايات الأولى لظهور فعل التمدن في منطقة الصحراء الاطلنتية عامة ومدينة طرفاية على الخصوص. ومن بين ذلك يمكن أن نتحدث عن التجارة القافلية بالصحراء، هذه الدينامية الاقتصادية هي التي ساهمت في ظهور بعض نوات التمدن بالمجال.فمع تطور القوافل التجارية التي كان للبدو الدور الأساسي فيها، والتي جابت الصحراء ونقلت خيراتها، تطورت معها بعض المراكز الحضرية، حيث جدبت اهتمام الرحالة والجغرافيين القدامى أمثال البكري والإدريسي. حيث تتموقع هذه المدن على محاور الاتصال شمال/جنوب منذ القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر كمحطات لربط قوافل التجارة، مما يفسر المسافات بينها، والتي تدل على مراحل مسير القوافل التجارية.

(Said BELGUIDOUM ; 2002, p 36)

فإذا كانت محافظات شمال المغرب عرفت تقدما ملحوظا في عملية التمدن بفعل العديد من العوامل؛ كالاستقرار البشري المبكر بها والفتح الإسلامي...الخ، فبالمقابل عرف الجنوب المغربي أيضا انتعاشا حضريا، ساهمت فيه بشكل أساسي تجارة القوافل الصحراوية، كما تحولت تدريجيا القواعد الكبرى من الساحل نحو الداخل، ومن الشمال نحو الوسط والجنوب. **(الشنوفي إدريس، 2009، ص : 54)**

زد على ذلك أن الطريق التجاري الذي يمر من وادي درعة إلى غانة عبر وادي تاركا (الساقية الحمراء)؛ عرف بدوره دينامية ليست باليسيرة وخاصة بعد تراجع أهمية الطريق الساحلي نتيجة الحملات العسكرية التي قادها "أبو بكر بن عمر اللمتوني" في اتجاه أودغست ومجال نفوذ مملكة غانة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد. وما نجم عن الحملات المرابطية على مملكة غانة من تراجع في نشاط ملاحة أوليل. **(حافظ علوي حسن، 2014، ص ص : 255- 256)**

غير أن هذه المراكز لم تكن تعبر عن مدن كبيرة بمعنى الكلمة، بل فقط مراكز ذات وظيفة تجارية معينة ارتبطت أساسا بالتجارة القافلية، الأمر الذي جعل بعض الباحثين المعاصرين يعملون على تصنيف الاستقرار بهذه المدن إلى نوعين: مدن الجيل الأول (اوداغست-قمبي صالح...) ومدن الجيل الثاني(شنقطي- ولاتة...الخ.

هكذا إذن وخلال العصور الوسطى -الفترة التاريخية لإزدهار التجارة الصحراوية-امتلأت الصحراء بالعمارة، حيث أصبحت المناطق الصحراوية "مسبولة حتى أنك لا تبيت إلا في عمارة ولا تقيل إلا في عمارة من كثرة العمارة. **(بوزنكاض، محمد، 2012،ص : 81)**

وهذا ما أكدته العديد من الدراسات الاركيولوجية حول المنطقة الصحراوية عامة، حيث توصلت إلى بعض الآثار التي تبين حجم الاستقرار في المنطقة.

غير أن هذا لا يعني بأن هذه الفترة شهدت حالة كبيرة من التمدن في منطقة صحراوية يغلب عليها طابع الترحال والبداوة، فمعظم هذه المنطقة؛ نكاد نجزم بأن التمدن والاستقرار بها كان ضعيفا، حيث وصف البكري هذه المنطقة بالمجابة الكبرى، وسماها الإدريسي بصحراء نسير وقال عنها: "وعليها يدخل المسافرون إلى أودغست وغانة وغيرها من البلاد... وهذه الصحراء قليلة الإنس ولا عامر بها، وبها الماء القليل ويتزود من مجابات معلومة **(حافظ علوي حسن، 2014، ص : 299)**

حاصل القول ومن خلال ما قدمناه؛ حاولنا قدر الإمكان الإشارة إلى بعض إسهامات التجارة القافلية التي عرفتها المنطقة الصحراوية في تشجيع تأسيس بوادر التمدن في الصحراء، ولا ندعي -كما قلنا سابقا-أننا وقفنا على كل الإسهامات التي قدمتها التجارة الصحراوية في ذلك. حيث أشرنا فقط إلى بعضها لنبين أن التمدن بالصحراء يعود إلى فترات تاريخية قديمة، وهذا ما أكدته العديد من الدراسات الاركيولوجية من جهة، ومن جهة أخرى لنشير إلى أنه ورغم ذلك تبقى البداوة والتنقل، النشاط المميز لأهل هذه المنطقة؛ والدليل على ذلك هو عدم استمرار المراكز المنشأة على طول هذا المجال في التطور، بل بعد ظهروها بقليل تصاب بالدمار والانحطاط، سواء من طرف البدو أنفسهم الذين كانت لديهم نظرة دونية للتمدن، أو بفعل الاضطرابات التي تعرفها التجارة القافلية. لكن يبقى هنا أن نشير إلى أن الدينامية الاقتصادية التي عرفتها المنطقة المتمثلة في التجارة القافلية، لم تكن وحدها الفاعل الرئيس في نشوء بعض المراكز، بل هناك عوامل أخرى سنأتي على ذكرها فيما هو قادم تباعا.

1- نقاط الماء ودورها في التمدن بالصحراء

مما لا شك فيه يعتبر الماء عنصرا أساسيا وفعالا في الحياة، فهو يشكل أحد الحاجيات الأساسية والضرورية للإنسان. وتزداد حدة هذه الضرورة عندما نتحدث عن مجتمع البداوة والترحال ومجتمع تدبير الندرة، فالماء هو أصل كل شيء حي. وتعتبر نقاط الماء المتجلية في الآبار والأودية هي أصل الاستقرار، بحيث نشأت عليها مراكز قروية ستتحول فيما بعد إلى مدن (**الترسالي محمد، 2016، ص : 253)**

لذلك سيشكل الماء عنصرا فعالا وأساسيا في استقرار وتمدن بدو الصحراء، حيث أدركت الإدارة الاستعمارية فيما بعد الدور الهام الذي يشكله الماء للتحكم في تحركات البدو. لذلك فمعظم المراكز أنشئت على نقاط وجود الماء، مع مراعاة استغلال الإدارة الاستعمارية للمصايد البحرية. غير أن هناك من يشير إلى أن سبب وجود الآبار يعود إلى مجهودات قام بها "عبد

الرحمان بن حبيب حفيد عقبة بن نافع في حفر الآبار الرابطة ما بين واحات باني ومدينة وأدغشت جنوبا.

(دحمان ومحمد، 2006، ص : 63) ويمكن أن نذكر بعض نقط الماء التي كانت عاملا حاسما في ظهور بعض المراكز وهي:

جدول رقم1: بعض نقط الماء بمدن الصحراء

المركز	نقاط الماء
الطرفاية	بئر طرفاية، وادي خاوي النعام...
بوجدور	حاسي بوجدور
العيون	عيون المدليشي، حاسي العيافة، حاسي تافراوت، وادي الساقية الحمراء..
الداخلة	الحاسي لبيض، تاورطة
السمارة	حاسي السمارة، وادي واين سلوان، الكايز الكبير والكايز الصغير، تاسديمل....

المصدر: شرايمي محمد، المدن الصحراوية، مرجع سابق ص:19

حاصل القول إذن يرجع أحد عوامل الاستقرار والتمدن؛ إلى اكتشاف نقاط الماء المتمثلة خاصة في الآبار والأودية، لهذا تجد البدوي دائما ينتقل بحثا عن نقاط الماء في الصحاري القاحلة، وعند عثوره على واد أو بئر أو بركة مائية يحط بها رحاله ويستقر على ضفاف تلك البركة أو ذاك النهر أو البئر. أما فيما يخص نشأة وتكون مدن الساقية الحمراء، والتي بدورها نشأت على نقاط تواجد المياه، فنجد الطرفاية على شاطئ المحيط الأطلنتي، حيث هناك دار البحر "كسمار"، وكذا بعض الآبار المتواجدة بها، أما السمارة نشأت على نهر وين سلوان، والعيون نشأت على ضفاف واد الساقية الحمراء. وهكذا يمكن اعتبار نقاط الماء عاملا أساسيا في استقرار البدو الرحل وكذا بناء المراكز الحضرية بالصحراء عامة. **(الترسالي محمد، 2016، ص : 254)**

غير أن ذلك لم يكن العامل الوحيد فقط وراء ظهور بوادر التمدن في الصحراء بل هناك العديد من المحددات الأخرى تدخل في ذلك الإطار.

3-الاستعمار وبوادر تمدن مدينة طرفاية

لعل الحركية التجارية والخصائص التي تميز المجال الصحراوي عامة؛ هي التي ستؤدي بالعديد من الدول الغربية إلى بعث رجالاتها لاستكشاف المناطق ومحاولة تغير مسارات التجارة الصحراوية نحوها، دون الاعتماد على الوساطة المغربية. وتعتبر مدينة طرفاية من أهم المراكز بالصحراء التي حظيت باهتمام الرحالة والمستكشفين الأجانب؛ حيث عرفت هذه المنطقة شهرة كبيرة في تاريخ الصحراء عند المستكشفين والرحالة منذ القرن الخامس عشر إلى نهاية الاستعمار الإسباني **(محمد، شرايمي، 2015، ص : 90)**

فقد ألهبت قلوب الرحالة والتجار فبحثوا لهم عن موطئ قدم بهذه المنطقة الاستراتيجية، التي تطل على الساحل الأطلسي والقريبة من جزر الكناري. بالإضافة إلى أنها بوابة استراتيجية للدخول إلى أدغال وعمق جنوب الصحراء، لذلك سيبعث المستعمر الأوروبي مستكشفيه إلى هذه المنطقة بغية خلق وحدة تجارية هناك، تؤسس لعلاقة تجارية مع بدو المنطقة من جهة، وتوجه التجارة الصحراوية من جهة ثانية لتجنب الوساطة المغربية. لكن لماذا بالضبط اختيار طرفاية من غيرها؟ وكيف تم ذلك؟

1-3 "دونالد ماكينزي" وبداية تأسيس بوادر مدينة ساحلية

إن اختيار مدينة طرفاية لهذا الدور التجاري الاستراتيجي من طرف المستعمر، لم يكن بشكل اعتباطي وعشوائي، بل على العكس من ذلك، فطرفاية ذات موقع استراتيجي مهم، فهي تقع في منطقة ساحلية وقريبة من جزر الكناري، كما أنها موقع رئيسي يعرف تواجد مجموعة من القبائل البدوية، التي يمكن أن تدخل في علاقات تجارية مع الأجانب. لذلك فإن اختيار الأوروبيين وخاصة الإنجليز أولا والإسبان ثانيا لهذه المنطقة، تحكمت فيه مجموعة من الدوافع والعوامل الاستراتيجية؛ منها ما يتعلق بالصيد البحري، ومنها ما يتعلق بالتجارة، سواء الداخلية

مع بدو المنطقة، أو الخارجية مع جنوب الصحراء. لذلك فمع دخول ماكينزي إلى طرفاية سيشرع في توسيع دائرة التجارة مع البدو الذين يجوبون هذه المنطقة مما سمح له ببناء بناية على الساحل. غير أن مشروع ماكينزي هذا لم يستمر بشكل كبير في المنطقة حيث تعرض لبعض الهجمات من طرف قبائل المنطقة، حيث قام مجموعة من الأشخاص باقتحام مرفأ طرفاية. (**محمد شرايمي، 2015، ص : 95)**

وعندما توالت الهجمات على مشاريع ماكينزي فكر في بناء مقر أخر (دار البحر) داخل البحر وفوق صخرة بارزة لا تبعد كثيرا عن الساحل من أجل تأمين تجارته.

2-3 إسبانيا وتوسيع دائرة التمدن

بعد خلق أول مركز لها بداخل الصحراء وهو الداخلة، شرعت إسبانيا في تغير سياستها في الصحراء عبر التوسع في أعماقها، وخاصة بعد توقيع اتفاقية 1912 مع جارتها فرنسا، هذه الاتفاقية التي سمحت بتقسيم الصحراء بين فرنسا وإسبانيا. حيث سينطلق بعد ذلك وبالضبط من وادي الذهب "**بينس**" من أجل التحضير لاحتلال طرفاية. هكذا سيعمل الإسبان بقيادة "بينس" على توسيع دائرة العمران بمدينة طرفاية مباشرة بعد دخولها، حيث سيعمل على بناء بنايات عسكرية ومدنية مثل الثكنة العسكرية وحي المحيط ومدرسة، مستشفى وسينما وغيرها من الوحدات.

كما تم إنشاء تجمع سكني قريب من قصبة طرفاية بحيين منفصلين، واحد منهما يسكنه الأهالي والأخر أقيم من أجل تلك البنايات الرسمية والتجارية. وغير بعيد عن ذلك توجد المباني الإدارية ومساكن الرؤساء والضباط والموظفين والعسكريين (**محمد، شرايمي، 2015، ص : 101)**

إننا فعلا أمام تحول عمراني في حياة البداوة يبدو للعيان بشكل واضح، حيث من خلاله عملت الإدارة الإسبانية على محاولة خلق وحدات سكنية لتشجيع العمران بالمنطقة وبالتالي تقوية وجودها في المنطقة، عبر استقطاب البدو من جهة والمعمرين الأجانب من جهة ثانية. مما

يسمح لنا بالقول وبشكل جلي أن الاستعمار الإسباني خلف وراءه معمارا مهما عسكريا ومدنيا، كالإدارات والثكنات والمطارات، كما تم إنشاء دار لمية وهي عبارة عن إقامة سكنية تتكون من طابقين توجد خارج أسوار الثكنة العسكرية أقيمت من طرف الإسبان للجنود الصحراوين المنخرطين في الجيش الإسباني ولقد انخرط فيها 100عسكري صحراوي. **(الترسالي محمد، 2016، ص : 251)**

كما تم بناء مسجد عتيق حيث يوجد خارج الحصن الإسباني.

هكذا إذن مع وجود الإسبان ستعرف مدينة طرفاية تطورا عمرانيا ملحوظا باعتبارها نقطة عسكرية لمراقبة تحركات القبائل، ونقطة مهمة للصيد البحري كما أنها أقرب نقطة تربط بين جزر الكناري ودواخل الصحراء. وقد كانت هذه المدينة عاصمة للمنطقة الجنوبية للمحمية المغربية، حيث سيتم استرجاعها سنة 1958 لتدخل بعد ذلك مدينة طرفاية في دينامية أخرى في شتى المجالات.

يبدو إذن أن مراكز التمدن والاستقرار بالصحراء تتحكم فيها عوامل متعددة ومختلفة من فترة إلى أخرى، فإذا كان البدو قد ساهموا بدورهم في إنشاء بعض المراكز، بحكم الدور التجاري الذي كانوا يلعبونه، أو بحكم العوامل الدينية الصرفة التي كانت وراء نشوء بعضها، إلا أن تطور ونمو وازدهار هذه المراكز وظهور بعضها من جديد؛ جاء بحكم دخول الأجنبي وخاصة إسبانيا إلى هذا المجال الشاسع والقاحل. فعملت الإدارة الإسبانية بخلقها لبعض هذه المراكز بالصحراء الاطلنتية، على تشجيع تمدن البدوي واستقراره بتلك المراكز. حيث ارتبط التمدن بهذه المدن والمغرب بأكمله بفرض المستعمر لنظام اقتصادي جديد يرتكز على السوق والتنافسية والأجر والحساب والوعي بالزمن وأهميته؛ **(رشيق عبد الرحمان، 2016، ص : 09)**

فرغم أن البدايات الأولى لإنشاء تلك المراكز تعرضت لهجمات كثيرة ومتوالية من طرف مختلف القبائل الصحراوية، نظرا لما كانت تشكله من خطر على الإنسان والمجال معا، إلا أنه

ومع توالي الحروب وارتفاع مستويات الجفاف، اضطرت بعض القبائل البدوية المرتحلة إلى الانتقال لحياة التمدن والاستقرار في تلك المراكز المستحدثة.

4- حضور الدولة وتطور التمدن

سيأخذ التمدن طابعه المرتفع بعد جلاء المستعمر الإسباني عن الصحراء، هذه الفترة بالضبط كانت الصحراء تعيش على جفاف جد حاد مس كل مناطقها، حيث زحفت الرمال وتراجعت رؤوس الماشية، فهاجرت بعض القبائل إلى المناطق الجنوبية للصحراء وبعضها نحو الشمال المغربي وخاصة واد نون وسوس، حيث ستعمل الدولة المغربية بعد استرجاعها للمنطقة الصحراوية على تشجيع عملية التمدن، وذلك عبر مجموعة من السياسات كانت على رأسها ضرورة توفير الأمن في البداية لضمان استقرار السكان وإعداد التراب الوطني، حيث قامت الدولة مباشرة بعد استرجاع المناطق إلى تنظيمها مجاليا وإداريا.

إذن بعد استرجاع المغرب للمناطق الصحراوية سترتفع حدة التمدن وستختلف مستوياتها، نتيجة لأسباب أمنية كتسارع حدة الحروب مع جبهة البوليساريو أو لأسباب بيئية طبيعية ترتبط أساسا بتصاعد مستويات الجفاف وتراجع تربية الماشية التي كانت النشاط المهيمن ونمط الإنتاج القائم في المجال، وخلال العقود الأخيرة من القرن العشرين حدثت تحولات ديمغرافية واقتصادية ومجالية مهمة وعميقة في الجنوب المغربي.

عموما، تعد مدينة طرفاية من بين المدن الصحراوية التي كانت شاهدة على مثل هذه التحولات، فبعد استقلالها عن الاستعمار الإسباني سنة 1958 باعتبارها عاصمة المنطقة الجنوبية للمحمية المغربية، التي كانت تضم إلى جانب طرفاية كل من طانطان وتيلمزون وتويزكي الرمث وعوينة سهب الحرشة والمسيد. حيث تم تعينها مباشرة بعد سنة استقلالها عمالة وتم تحويلها إلى منطقة إدارية وعسكرية للمملكة، كما تم افتتاح إذاعة مركزية من مدينة طرفاية للرد على كل ما تبثه الإذاعة الإسبانية من مدينة العيون آنذاك (**شرايمي محمد، 2015، ص : 103**)

لكن سيتراجع الدور الاستراتيجي والإداري المهم لمدينة طرفاية سواء مع الإسبان أو المغرب مباشرة بعد استرجاع المدن الصحراوية الأخرى تواليا بعد المسيرة الخضراء التي كانت مدينة طرفاية كنقطة لتجمع نشاط تلك المسيرة. حيث ستأخذ مدينة العيون هذا الدور المركزي والإداري، كما سيتم إنشاء وتوسيع ميناء مدينة طانطان الذي سيأخذ دوره الاقتصادي الفعال في المنطقة، لتصبح بعد ذلك مدينة طرفاية بين القوة الإدارية والمركزية لمدينة العيون والقوة الاقتصادية لمدينة طانطان.

هكذا إذن مع تدخل الدولة المغربية في المنطقة عامة، ستشهد مدينة طرفاية دينامية عمرانية واقتصادية غير أنها جد محتشمة وغير كافية، فرغم تعيينها عمالة بالمنطقة إلا أنها لم تلقى اهتمام كبير رغم دورها التاريخي الغني. ليبقى السؤال المطروح كيف يمكن رد الاعتبار لمدينة تاريخية مثل مدينة طرفاية؟ كيف يمكن أن نجعل من التنمية الغاية الأساس بالمدينة؟

ثالثا: واقع ورهانات التنمية بطرفاية

تفرض دراسة التنمية في مدينة طرفاية تحديد المؤشرات التي تثبت درجة نموها أو العكس، الأمر الذي يستوجب استحضار الركائز الأساسية لهذه التنمية والتي تجعل منها علاقة منطقية وذات وقع على المجتمع والمجال وهو ما سنعمل على إبرازه، من خلال بعض مؤشرات والمؤهلات التي تحتضنها المدينة.

1- البنية الديمغرافية لمدينة طرفاية

للوقوف على حقيقة التنمية ودينامية التمدن بمدينة طرفاية لابد من دراسة التطور السكاني بالاعتماد على المعطيات الإحصائية المتوفرة لسنوات 1982-2014؛ بغية إبراز مستوى اندماج هذه المنطقة في النسيج الحضري، ولتفسير المفارقة الديمغرافية وحركة التمدن التي يعرفها هذا المجال والتي يقابلها في نفس الوقت تراجع عدد القرويين أو الرحل وتزايد عدد السكان الحضريين.

جدول رقم 2: تطور عدد سكان الإقليم حسب الوسط (1982-2014).

إقليم طرفاية	الوسط القروي	الوسط الحضري	المجموع
1982	6718	2909	9627
1994	3745	4506	8251
2004	4805	5615	10420
2014	5055	8027	13082

المصدر: الإحصاء العام 1982، 1994، 2004، 2014.

عرف معدل التزايد السنوي ما بين 1982-1994 نسبة تراجع ب1,3 -، إذ تراجع عدد السكان من 9627 نسمة إلى 8251 خاصة ساكنة المجال القروي من 6718 إلى 3745 بنسبة4.8-، في مقابل تزايد سكان المجال الحضري من 2909 إلى 4506 بنسبة تزايد3,7.في المقابل عرف عدد سكان إقليم طرفاية زيادة إجمالية تقدر 2,3 %، بين إحصاءي 1994 و2004. كما ارتفع عدد السكان الحضريون من 4506 نسمة إلى 5615 نسمة خلال نفس الفترة، أي بزيادة سنوية تقدر ب 2,2 %، أما عدد القرويين فقد ارتفع بدوره من 3745 نسمة سنة 1994 إلى 4805 نسمة سنة 2004 مسجلا بذلك زيادة سنوية تقدر ب 2,5%. بالرغم من الظروف الطبيعية الصعبة، والحركات الهجرية التي ميزت تاريخ المجال الصحراوي (تحديد الهوية، اليد العاملة في الصيد البحري) عرف إذن إقليم طرفاية تحولات ديمغرافية كبيرة ونموا حضريا هاما تمثل في تزايد نسبة تمدن المدينة وارتفاع نسبة السكان الحضريين كما بينت ذلك النسب المئوية.

وبالرجوع إلى نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2014 أظهرت أن عدد سكان إقليم طرفاية بلغ 13007 نسمة. كما أظهر أن إقليم طرفاية هو أصغر إقليم على صعيد المملكة من حيث عدد السكان، يليه إقليم أوسرد ب 16 ألف نسمة. ويبلغ عدد السكان الحضريين بطرفاية حوالي 8000 نسمة (نسبة 61 في المئة) وهم سكان بلدية طرفاية، أما عدد السكان القرويين فيبلغ 5000 نسمة (نسبة 39 في المئة) وهم سكان الجماعات القروية التابعة للإقليم.

جدول رقم 3: تطور عدد سكان إقليم طرفاية ،1994،2004،2014 .

إقليم طرفاية	1994	2004	2014
بلدية طرفاية	4506	5615	8027
جماعة أخفنير	1334	1583	2280
جماعة الداورة	966	878	1108
جماعة الحكونية	882	1089	151
جماعة الطاح	563	1255	1516
المجموع	8251	10420	13082

المصدر: نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى 1994،2004،2014.

بالنظر إذن إلى نتائج الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2014، نلاحظ التطور الحاصل في عدد سكان المدينة على المستوى الحضري وكذلك التطور على مستوى ساكنة المجال القروي باستثناء جماعة الحكونية. فهذا النمو والتطور ليس نتيجة لنمو ديمغرافي طبيعي فقط، ولكن نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية مرتبطة بظروف المنطقة إلى جانب حداثة عهدها بالتمدن. الشيء الذي كان له بالغ الأثر على تدبير المجال العقاري والسكني بالمدينة واستغلال الموارد البحرية والرعوية. كما أن هذا النمو تطلب استثمارات في التعليم، الصحة، الخدمات، النقل، التجهيزات، خاصة وأن المدينة بعيدة عن مصادر التموين والموارد الأساسية في التغذية والرعاية الاجتماعية.

إن الهدف من تقديم هذه الأرقام إبراز دينامية البنية الديمغرافية لمدينة طرفاية وللإقليم ودورها في التنمية، والتي تحكمت فيها عوامل طبيعية وسياسية واجتماعية واقتصادية انعكست بشكل من الأشكال على دينامية التمدن بالمدينة بنسبة 54 %. كما أن هذا التطور لم يكن ليكون ممكنا دون المجهودات التي سجلتها المدينة على مستوى خلق البنيات التحتية المتمثلة أساسا في ميناء طرفاية الذي يعد محركا لعجلة التنمية والمتنفس الاقتصادي للمدينة.

2- ميناء طرفاية: محرك اقتصادي للمدينة وعامل استقرار رئيسي

شكل ميناء طرفاية عاملا محوريا في تمدين وتنمية المدينة، باعتباره محركا اقتصادي للمدينة وأحد أهم دوافع استقرار السكان بها. فهذا الميناء الذي شيد سنة 1982 لم يكن يشكل في الستينيات من القرن الماضي سوى مرفأ صغير تستغله القوارب التقليدية. فهو اليوم يحتضن أسطول بحري مهم، إذ يمتد على مساحة تقدر 39.6 هكتارا يغطي الحوض البحري منها ما مساحته 17 هكتار، أما طول حواجزه فتبلغ1720متر، أما طول الأرصفة فتصل إلى 214 متر (**رمان عبد اللطيف، 2003، 41)**

ليكتسي بهذا بعدا جهويا إذ يعد ثالث ميناء بعد ميناءي المرسى وبوجدور. نتيجة توفر المدينة على ساحل بحري يكتنز ثورة سمكية مهمة خاصة سمك السردين. ولانفتاحه على المصايد الأطلنتية الغنية والمرتبطة بتردد التيار البحري البارد الذي يمر من سواحل طرفاية المعروف باسم الكناري.

وبالعودة إلى الفترات الأولى لبداية قطاع الصيد البحري في الصحراء سنجد على أنه لم يكن له اهتمام وتأثير مهم بسبب سياسة الاستعمار التي كانت متبعة بالأقاليم الجنوبية هذا من جهة ولأسباب ثقافية لأهل الصحراء من جهة ثانية. لكن بعد تدخل الدولة تم نهج سياسة أخرى في هذا القطاع فارتفعت بذلك حجم اليد العاملة الموظفة، التي شكلت أحد أهم عوامل التوسع العمراني، باستقبال المدينة عددا كبيرا من المهاجرين (عبدة ودكالة وحاحة والسراغنة...) للاشتغال في قطاع الصيد البحري، وأمام تطور القطاع أصبحت المدينة تنمو يوما بعد يوم ويتزايد عدد سكانها بفعل هذه الهجرة ولم تكن هذه الهجرة فقط متمثلة في الشباب الباحث عن فرص العمل في الصيد البحري ولكن تمثلت في سكان مخيمات الوحدة ومجموعات العائدين من مخيمات تندوف ولحمادة مما خلق دينامية جديدة داخل قطاع الصيد البحري. (**دحمان محمد، 2007، ص : 228)**

زاد من إشعاعها مع مرور الوقت وبشكل متواصل.

جدول رقم4: تطور إنتاج الصيد البحري بميناء طرفاية 2009 و2010.

ميناء طرفاية	الكمية	القيمة
2009	6839	44833
2010	1132	34901
2012	7743	83079
2013	2507	62823

المصدر: النشرة الإحصائية الجهوية العيون بوجدور-الساقية الحمراء 2014

إن استمرار عروض التشغيل وفرص العمل التي يقدمها الميناء وقطاع الصيد البحري، جعل المدينة تنتقل من مجرد مركز اقتصادي لا يتوفر على بنيات مهمة إلى مدينة اقتصادية مهمة بالأقاليم الجنوبية، ومع تزايد تطورها أصبحنا أمام دينامية نتجت بالأساس عن سياسة التعمير التي اتبعت وعن التطور المهم الذي مس الاقتصاد المحلي. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فميناء طرفاية له دور كبير في تحريك عملية التعمير بالمدينة وذلك من خلال حجم الاستثمارات التي وضعت لتنمية المدينة وتأهيلها، إذ تظهر معالم التمدين المرتبطة بالميناء في بداية إنشاء المصانع ووحدات التصنيع المستقرة على تراب المدينة. إلى جانب نشاط الميناء في صيد السمك فإنه يعرف أنشطة أخرى مهمة ذات وقع اقتصادي على المدينة كتصدير الرمال والملح.

3- التراث المادي وفرص التنمية بالمدينة الصحراوية

تتوفر مدينة طرفاية على تراث مادي جد مهم، مكون من بنايات معمارية ارتبطت بالتاريخ الاستعماري للمدينة، كما تشكل في ذات السياق عوامل تؤرخ لبداية نشأة المدينة واستقرار السكان، ومؤهل يحتاج إلى الاستثمار لتحقيق التنمية بهذا المجال، وهي:

- **دار البحر كسمار casa mar: هي** البناية الأكثر قدما بالمدينة أنشأها التاجر ماكينزي سنة 1876، وكانت تلعب دورا مهما في المبادلات التجارية قبل أن تصبح معلمة يهتدي بها البحارة بفضل منارتها. أما شكلها الهندسي فهي مربعة على مساحة 480 متر مربع، وطولها 3

أمتار وعرضها 16 متر. سمكها يتجاوز 1,5 متر. تتكون من طابقين كل طابق يشمل 8 غرف. بالإضافة طابق ثالث تحت الأرض يضم صهاريج لتخزين المياه الصالحة للشرب.

- **مرفئ فيكتوريا:** أو ميناء فيكتوريا أنشأته بريطانيا بعد انتهائها من بناء كسمار، الهدف منه تأمين رسو المراكب التي تنقل السلع من وإلى ساحل طرفاية.
- **البريد الجوي وأعمال الطيار أنطوان سان إكزوبيري: Antoine de saint- Exzoperie.**

اكتسبت المدينة شهرة عالمية بفضل الطيار الفرنسي أنطوان سان إكزوبري الذي ذكرها في كتابه (الأمير الصغير، بريد الجنوب) بكونها محطة مهمة للطائرات وقد أنشئت بها الشركة العامة للبريد الجوي التي تفرعت من خطوط لاتيكوير (latécoére) لنقل البريد المدني بين فرنسا وإسبانيا مستعملة خط تولوز-دكار ما بين 1927 و1933 لتوسع نشاطها في اتجاه أمريكا الشمالية مرورا بالمغرب والسينغال. ومحتضنة بذلك اليوم المدينة متحف باسمه. لصون ذاكرة هذا الطيار والكاتب العالمي.

- **الحصن الإسباني أو القصبة:** عبارة عن حصن تم تشييده من قبل إسبانيا، يضم تكنات عسكرية ودور سكنية لعائلات الجنود الإسبان. وتنقسم البناية إلى خمسة أجزاء.

- الجزء الغربي: يشتمل على مباني عسكرية منها مقر الإدارة العسكرية الرئيسي، ومباني مخصصة لسكن الجنود. لازالت قائمة إلى اليوم تستخدم لنفس المهام من طرف المؤسسة العسكرية المغربية.
- الجزء الشرقي: عبارة عن مستودعات عسكرية التي هدمت عن أخرها ولم يتبقى منها سوى الأسوار وبرج للمراقبة الرئيسي.
- الجزء الشمالي: يحتوي على مستشفى يقع في الزاوية الشمالية الشرقية كان تابعا للجيش الإسباني.
- الجزء الجنوبي: يضم مباني كالمنازل كما يضم أحد أبواب الحصن الثلاثة.
- الوسط: يضم مباني عسكرية من مستودعات ومساكن للجنود ومنازل التجار، المطار.

- **دار لمية la mia:** بنيت هذه البناية ما بين سنة 1917-1920 من طرف إسبانيا، وتتكون من طابقين، وتتواجد خارج أسوار التكنة العسكرية. وهي في الأصل عبارة عن إقامة سكنية لإيواء الجنود الصحراويين المنخرطين في الجيش الإسباني، حيث انخرط فيه 100 عسكري من مختلف القبائل الصحراوية. وقياسا على ذلك سميت بهذا الاسم.

يظهر جليا من خلال ما سبق مدى التنوع الذي تتميز به مدينة طرفاية من حيث المؤهلات الثقافية والعمرانية التي تزخر بها المدينة فكل هذه المؤهلات تمثل تميزا للمجال الصحراوي وقيمة مضافة تجعل منها مجالا يشكل ثروة تحتاج إلى الاستثمار والتثمين. غير أن هذه المعالم التاريخية تحتاج إلى الترميم كأحد الرهانات المستعجلة، إذ بدون ذلك سيتم تعريض هذا التراث للضياع وتراجع فرص التنمية بالمدينة. نتيجة لكل العوامل السالفة فان المحافظة على التراث الثقافي المادي لا يمكن أن يتأتى إلا في إطار سياسة جهوية حقيقية ومنظومة من العمليات المتكاملة من الحماية القانونية والمؤسساتية لإعادة الاعتبار لهذا التراث عبر إدماجه في مخططات التهيئة الترابية والجهوية وفي برامج التنمية الاقتصادية والثقافية، عبر إحداث مشاريع تندرج ضمن قواعد التنمية المستدامة مثل السياحة الثقافية والايكولوجية التي يمكن أن تعتمد على الترويج لمعالم من هذا التراث الثقافي المادي التي تم التطرق لها.

رابعا: عوائق التنمية بمدينة طرفاية

تعترض مدينة طرفاية كغيرها من مدن الصحراء مجموعة من الإكراهات ترتبط أساسا بالموارد الطبيعية المحدودة، والتي تحول دون أدائها لدورها التنموي وتتجلى في ما يلي:

1- زحف الرمال والترمل

إن من بين الإكراهات التي تعرقل عملية التنمية بالمدينة نجد الترمل كأحد المشاكل الكبرى التي يجب مواجهتها، فهذا الانتقال المستمر للكثبان الرملية يجتاح المجالات الفلاحية ويهدد التجهيزات الطرقية والسكن بالمدينة. كما يعرقل نشاط الميناء وهو الأمر الذي يجعل

مستوى المياه ومجال العبور للحوض أمرا صعبا وخطيرا مما يجعل عمله يعرف اختلالا، في بعض الأحيان وتوقفا عن العمل في أحيان أخرى.

2- الاستغلال المفرط للثروات البحرية

أصبح الاستغلال المفرط للثروات البحرية يهدد المكانة التي يحظى بها القطاع كركيزة أساسية لتنمية اقتصاد المدينة ولبرامج التنمية الاقتصادية الجهوية، وذلك بسبب عدم نجاعة التدابير المصاحبة لعقلنة الاستغلال، وتراجع المنظومة الإيكولوجية بالإضافة إلى الصيد في الأماكن الغير المرخصة.

3- ندرة الموارد المائية والماء الصالح للشرب

يشكل انعدام المياه السطحية ومحدودية المياه الجوفية من بين العراقيل الأساسية التي تواجه التنمية بالمدينة. كما أن الفرشات المائية المتواجدة ورغم أهميتها فإنها تتوفر على نسبة كبيرة من الملوحة تتراوح بين 2 g و 9g للتر في الماء، كما أنها تعرف استغلال واستنزاف بفعل تكاثر حفر الآبار. الشيء الذي يجعل اللجوء إلى تحلية الماء يبقى وسيلة مكلفة للحصول على الماء الشروب. لتغطية الحاجيات الأساسية منه.

إلى جانب الإكراهات الطبيعية السابقة تعترض المدينة إكراهات الأخرى أهمها انعزال المدينة عن الطريق الوطنية رقم 1 الشيء الذي يجعلها تعيش نوعا من التهميش الذي أثر عليها سلبا وعلى نشاط مينائها بالخصوص. كما أن بعدها عن تجهيزات الجهوية لا يسمح لها بلعب دورها الذي بدأ يلعبه مركز أخفنير كمركز حضري صاعد وهو الواقع بين طانطان وطرفاية.

- خاتمة

نستخلص من خلال ما سبق أن تاريخ الاستقرار بمدينة طرفاية ارتبط بالتاجر ماكينزي، كما تعد دار البحر كسمار من أقدم الدلائل على بوادر استقرار المجموعات البشرية التي عرفتها المدينة إلى جانب التكنة العسكرية ودار لمية مشكلة بذلك النواة الحضرية الأولى لطرفاية. وقد شكل الاستعمار الإسباني والفرنسي عاملا محددا في تمدن المدن بالصحراء ومنها مدينة طرفاية،

بنقل البدو الرحل من حالة الترحال والبحث عن الكلأ والماء للقطعان إلى حالة الاستقرار والتزود بالمؤونة. فيما اعتمدت الدولة الوطنية في توطين البدو الرحل داخل المراكز الحضرية الجديدة، على سياسة نقل الرحل من البوادي إلى المدن مما خلق دينامية حضرية انعكست على تمدن مدن الصحراء ومنها طرفاية. وتتداخل مجموعة من العوامل في إحداث التوسع الحضري للمدينة فبالإضافة إلى عاملي النمو الديمغرافي والهجرة، هناك عوامل مسؤولة منها تتوفر المدينة على ميكانيزمات اقتصادية تشكل بالنسبة لها دعامة حقيقية للاقتصاد المحلي وعامل مساعد على الاستقرار والتوسع الحضري. إن الازدهار الاجتماعي والاقتصادي لهذه المدينة يرتكز بالخصوص على إمكانياتها ومواردها البحرية والطبيعية، كما تتوفر أيضا على إمكانيات أخرى في مجال التنمية وبالخصوص في قطاع الطاقات المتجددة – الريحية والشمسية-التي تشكل مؤهلا مستقبليا لتنمية المدينة.

قائمة المصادر والمراجع :

1. بوزنكاض محمد (2012)، **دراسات في التاريخ الاجتماعي للصحراء الأطلسية ما بين القرنين 17 و18**، المطبعة والوراقة الوطنية.
2. الترسالي محمد (2016)، **ديناميات التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمع الصحراوي من البداوة إلى التمدن دراسة سوسيولوجية لمنطقة الساقية الحمراء**، بحث أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب ظهر لمهراز فاس.
3. حافظي علوي حسن (2014) ، **دراسات صحراوية الماء والإبل والتجارة**، تصدير محمد الناصري، دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط.
4. دحمان محمد (2006)، **الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب**، **مطبعة** برنت، الرباط
5. دحمان محمد (2007)، " المجتمع الصحراوي بين الثابت والمتحول"، ضمن كتاب: **الصحراء الأطلنتية المجال والإنسان**، تنسيق رحال بوبريك، منشورات وكالة الجنوب وجامعة ابن زهر، الرباط.
6. رشيق عبد الرحمان (2016)،"السياسة العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب" ضمن، **مجلة عمران**، العدد:5 /.2016
7. رمان عبد اللطيف (2003)، «طرفايّة» ضمن **معلمة المغرب**، ج 17، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. مطابع سلا، المغرب .
8. شرايبي محمد (2015)، **المدن الصحراوية النشأة والتطور**، طوب بريس،الرباط.
9. الشنوفي إدريس (2009)، **المدينة والسلطة بالمغرب (ق7-11م)**، بحث أطروحة دكتوراه في التاريخ إشراف محمد المغراوي، جامعة محمد الخامس، الرباط.
10. Said BELGUIDOUM (2002), « ***Urbanisation et urbanité au Sahara*** » in Méditerranée, Revue géographique des pays Méditerranée n° 3-4 - ; p 36.